

التفصير المختصر - سورة آل عمران (٣٠) - الدرس (٦-١) : تفسير الآياتان ١٤-١٥
، الشهوات سلم ترقى بها أو دركة تهوي بها
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٤-٠٤-٠٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعود الأمين وبعد ؟ فقد أنهينا في الدروس السابقة، بعض الآيات الكريمة المختارة من سورة البقرة، ونتقل إلى سورة آل عمران، وفي أوائل هذه السورة آيتان كريمان يقول الله سبحانه وتعالى فيهما:

﴿رِزِّيْنَ لِلنَّاسِ حُبَّ الشَّهْوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَاتِلِيْرِ الْمُقْنَطِرَةِ مِنَ الْذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ
الْمُسُوْمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَوْبِنْتُكُمْ
بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ
وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)﴾

(سورة آل عمران)

أيها الإخوة الكرام ؛ رُكِبَ في كيان الإنسان هذه الشهوات، وقد يفهم بعضهم أن هذه الشهوات أساس فساد العالم، والحقيقة عكس ذلك، فلو لا هذه الشهوات التي ركبنا فيها لما دخلنا الجنة، ثم إن هذه الشهوات حيادية، إنها سُلْمٌ ترقى بها إلى الجنة أو دركات تهوي بها إلى النار، إن هذه الشهوات بمثابة محرك يحرك هذه المركبة، فإذا كان مع هذا المحرك مقود يحافظ على بقاء السيارة على الطريق المعبد، كان هذا المحرك قوة دفع لهذه المركبة، أما إذا كان هذا المحرك يعمل بلا مقود، والطريق فيه انعطافات، وعلى جانبيه وديان سحيقة، فالهلاك حتمي.

إذاً الشهوات حيادية، ليست هي سبب فساد العالم، بل إن سوء استخدامها هو سبب فساد العالم. إن الشهوات التي أودعها الله فيها، قيدها في الوقت نفسه بمنهج رسمه الله لنا، فما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا ولها قناة نظيفة، لو سارت هذه الشهوة في خلال القناة لاتت أكلها ضعفين، كنت ضربت من قبل مثلاً، الوقود السائل بالسيارة، فيه قوة انفجارية، لكنه إذا وضع في مستودع محكم، وسال في الأنابيب المحكمة، وانفجر في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب، ولد حركةً نافعة، تسعد بها، وتتقلك أنت وأهلك إلى مكان جميل، ماذا يجري بالسيارة ؟ انفجر، لكنه انفجر وفق المنهج، أما لو خرج هذا الوقود عن مساره، وأصابت السيارة شرارةً لأحرقت المركبة وما فيها.

فإياك أن تتهم الشهوات، فلو لاها لما ارتقيت إلى رب الأرض والسماءات، ولو لاها لما دخلت الجنة، ولما تقربت إلى الله، تصور هل من طريق آخر تقرب به إلى الله غير طريق الشهوات، المال محبب فإذا أنيقته حلالاً ارتقيت إلى الله، فإذا كان مع شخص خمسين ليرة، يمكنه أن يأكل طعاماً نفيساً هو وأهله، لكنه أعطاها لفقير، لو لا أنه تحب هذا المبلغ لما ارتقيت بإنفاقه، وأودع

الله فيك حب النساء، فلو لا أنك تحب النساء ومررت في طريق على امرأة سافرة وغضضت بصرك عنها لا ترقى إلى الله، بل إن هذه الشهوات ترقى بها إلى الله مرتين، ترقى بها مرة صابراً ومرة شاكراً، فإذا نظرت إلى ما يحل لك ترقى شاكراً، وإذا غضضت عما لا يحل لك ترقى صابراً، إذا كسبت المال من وجوهه المشروعة وأنفقته فيما هو مشروع، كأن تأتي مثلاً بالطعام والشراب والفاكه لأولادك، وقد أدخلت على قلوبهم السرور، فإنك ترقى إلى الله شاكراً، فإذا امتنعت عنأخذ مال حرام، فيه شبهة، وأنت في أشد الحاجة إليه، وقد أودع الله في كيانك حب المال، ترقى إلى الله صابراً، هذه الشهوات إذا كالمنشار، ترقى بها مرتين، فإن سلكت القناة النظيفة التي سمح الله لك أن تسلكها ارتقى إلى الله شاكراً، وإن ابتعدت عن الوجه الذي حرمه الله عليك ترقى إلى الله صابراً، ولو لا الشهوات لما ارتقىت إلى رب الأرض والسماءات، ولو لا الشهوات لما تقربت إلى الله عز وجل، والإنسان يصلى في اليوم خمس مرات، أما إذا سار في الطريق المشروع يصلي آلاف المرات، لأنه كلما غضّ بصره عن امرأة أجنبية ارتقى إلى الله، فهناك ألف طريق لكسب المال.

اليوم سمعت في الأخبار أن أكبر ربح في العالم ربح المخدرات؛ ألف مليار دولار، أعلى ربح في العالم، أرباح المخدرات التي تسبب الآلام لملايين الأسر، إنها أرباح طائلة، إذا فالإنسان إذا امتنع عنأخذ المال الحرام يرقى، وإذا سلك الطريق المشروع يرقى، وإذا غضّ بصره عن امرأة أجنبية يرقى، وإذا نظر إلى امرأته يرقى، كالمنشار ترقى بالشهوات مرتين، كلما أقبلت على طريق مشروع ترقى بها، وكلما ابتعدت عن طريق حرمه الله ترقى بها، فالإنسان لا يتألم من الشهوة، بل يتألم من نفسه، بشكل أو بآخر، السكر مادة ثمينة، والملح مادة ثمينة، فلو وضع الملح في الحلويات، هل تأكلها؟ أو وضع السكر في طبخة غالية الثمن هل تأكلها؟ لقد فسدت الطبخة، السكر مادة ثمينة ونافعة، والملح مادة ثمينة ونافعة، لكن أسأت الاستعمال، فالفساد هو في إساءة الاستعمال؛ فالمرأة صمنت لتكون زوجة لك، تسعد بها وتسعد بك، وتتجب أطفالاً ترفرف بوجودهم على البيت السعادة والهناء، أما إذا سلكت في قضاء هذه الشهوة طريقاً حرّمه الله عليك تشقي، فالشقاء هو في سوء استخدام هذه الحظوظ ونذك الشهوة.

هذا معنى قول الله تعالى:

**﴿زِينَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهْوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَاطِرِيْرِ الْمُقْنَطِرِةِ مِنَ الْذَّهَبِ وَالْفَضَّةِ وَالْخَيْلِ
الْمُسَوْمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾**

أما الشيء الدقيق في هذه الآية:

﴿ذَكِ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

وكان المتعاق كله في كلمة:

﴿ذَكِ﴾

هذه التي بين يديك.

﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدُهُ حُسْنُ الْمَأْبِ﴾ (١٤)

فإذا اتقى الإنسان الله في هذه الشهوات، وجاءه ملك الموت ليقبض روحه، وقد مات على الإيمان، وعلى طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فله عودة إلى الله لا توصف من شدة السعادة.

﴿وَاللَّهُ عِنْدُهُ حُسْنُ الْمَأْبِ﴾ (١٤)

فحينما تؤوب إلى الله، وقد اتقى الله في هذه الشهوات، فلك عودة الله عز وجل، وأنت في أسعد الحالات.

لذلك قالوا: الموت عرس المؤمن، والشيء الثابت أنَّ أسعد لحظات المؤمن حين يلقى ربه، وكربلاه يا أبي ! قال: لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبه محمداً وصحبه. فالك أن تتزوج، وأن تتجب الأولاد، وتشتغل وتتسب المآل كلها بالطريق الحلال، وفق المنهج الرباني، ادرس واحصل على شهادات عليا، وتأجر وافتتح محلات، ضمن المنهج، وكن صادقاً، لا غش، ولا تدليس، ولا ربا، وكل عملك وفق المنهج، فالله ما حرم عليك الدنيا، ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه، إلا أن يتزود منها معاً، فإن الأولى مطية للثانية، والدعاء الشريف:

((اللهم اصلاح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلاح لي دنياي التي فيها معاشى، وأصلاح آخرتي التي إليها مردي، ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسن، وارزقنا العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة، واهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت))

وهذه واقعية النبي صلى الله عليه وسلم. لكن دققوا في الآية التالية، فكل واحد من إخواننا الكرام ذاق نعمة المال، ونعمة النساء، ونعمة الزوجة، والبيت المرريح، والمركبة الفاخرة، والبيت في المصيف.

فهذه الشهوات مارسها وعرفها، ثم إن ربنا عز وجل يقول لكم:

﴿قُلْ أَوْنَبِئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ﴾

هل أنت مصدق الله عز وجل:

﴿قُلْ أَوْنَبِئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِذِينَ اتَّقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾

وأثمن من كل ذلك:

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١٥)

لذلك قال صلى الله عليه وسلم:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المحيط إذا غمس في مياه البحر))

سافر إلى طرطوس واركبقارب لأرواد وخرج من جيبك إبرة واغمسها في مياه البحر، ثم اسحبها، واحسب النسبة، كم نقص البحر من مائه ؟

وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو:

﴿وَمَا يُنْطِقُ عَنِ الْهُوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾

(سورة النجم: الآية: ٤، ٥)

لقد قال:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المحيط إذا غمس في مياه البحر.))

والحمد لله رب العالمين